جامعة سيّدة اللويزة

2018/10/29

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة

الأب بيار نجم

في حفل توزيع المكافآت على الفائزين

في جائزة كمال يوسف الحاج – دورة 2018 الثالثة

على مدخل جامعتِنا وأنتم داخلون تقرأونَ عبارة Gaudium De Veritate، "الفرحُ النابعُ من الحقيقة"، كلماتٌ قالها أغسطينس، واعتنقها توما الأكويني، وردّدها روبرتس بيلارمينو، كلُّهم من أعمِدة الإيمان في الكنيسة، وكلُّهم من فرسان الإيمان الباحث عن الفهم، ما خافوا التفكير في إيمانهم، ولا أقصوا من منهجيّتهم وزنة العقل التي وهبهم إياها الله، لم يدفنوا هذه الوزنة التي تميّزُ الكائن المخلوق على صورة الله ومثاله، بل تاجروا بها في بحثهم، عبر العقل، بقدر استطاعته ورغم محدوديته إزاء اللامتناهي، فأكّدوا على كرامة الانسان وقيمته ككائن "عاقل" مفكّر، باحث، يسعى الى الفهم والمعرفة، ليصل الى الحقيقة التي يتوق اليها، "لأنّ كلّ كائن بشريّ يتوق الى المعرفة" كما قال أرسطو.

ولأنّ حقيقتنا هي المسيح كلمة الله الأزليّة، وحكمته، ولأنّ الإناء لن يدرك سرّ جابله، ولا وعاؤُنا البسيط يقدر أن يحتوي أوقيانيوس الألوهة، كان لا بدّ للفلسفة من الإتضاع، فكانت صرخة أغوسطينوس Crede ut intelligas "آمن لكيما تفهم"، أخذها عنه وشخصنها القدّيس الفيلسوف انسلمس أسقف كانتربري فقال Credo ut intelligam

"أؤمنُ لكيما أفهم" كتتويج لمسيرة الإيمان الباحث عن العقل عبر مقولته التي تختصر المسيرة بأسرها "Fides quaerens intellectum" (الايمانُ الباحثُ عن الفهم).

منذ نشأة الفلسفة المسيحية، منذ بولس ومن بعده أغسطينوس غرباً وافرام شرقاً، وصولاً الى العصر الوسيط، أيقن الفلاسفة اللاهوتيون أن تهميش العقل يؤدّي الى العاطفية السطحيّة والتقوقع والأصوليّة، فتفاعلوا مع الفلسفة المحيطة ووضعوها في خدمة لاهوتهم، لقد عمّدوا الفلسفة اليونانية لتصبح خادمة الحقيقة الميتافزيقية، كما علموا أن تهميش الإيمان لا يؤدّي سوى الى الماديّة، والإلحاد، واللا أدرية والعدمية، فيتحوّل عالمنا من مكان خلقه الله ورآه جميلاً، الى واحة فلسفةٍ تعيسة، ويتحوّل فلاسفتنا الى "أنبياء الشؤم" كما بعض أنبياء العهد القديم.

وإذا قرأنا بتمعّن لا فلسفة كمال يوسف الحاج فحسب، بل مسيرته الفلسفيّة وتطوّرها ونضوجها، نرى مسار التحوّل هذا كلّه، وكأني به يختصر في مسيرة سعيه الى فهم الإيمان دينامية حوار الإيمان والعقل الممتدّ على مدى ألفيتين من حياة كنيستنا. هو العلموّي الجذريّ في كتاباته الأولى، القائل أنّ "الفيلسوف وإن آمن، يحمل في قرارة نفسه متمرّداً لا يقنع إلاّ بالعقل الطبيعي"، وهو الذي رأى في العلم سبب اندماج الفرد اندماجاً صحيحاً في مجتمعه بسبب الإكتشافات العلمية. فالعلم هو الذي أسهم في إنتاج "النحنُ"، ورأى في العلم أساس العدالة المجتمعيّة والديمقراطيات.

ولكنّه عاد في مرحلة تالية، حرّر علم الأخلاقيات والنفس من سلاسل العلوم الوضعيّة، فالعلم لا يجيب على "ليشيات الوجود الكبرى" "ولا يملك برهنة على وجود الله، وأيضاً العلم لا يملك برهنة على عدم وجود الله" (الله، 1975)، وصولاً الى إعلانه عن خيبة

الإنسان "بعد اعتقاده أن الخيرات سوف تتدفّق عليه من خزائن العلم"، فلم يتدفّق عليه غير الويلات".

عندها، برأيي، شقّ فكر كمال يوسف الحاج شرنقة العلمويّة عبر مخاض خيبة الأمل، ليصل الى حقيقة أن العلم هو الوسيلة لا الهدف، وهو وسيلة ثمينة ولكنّها محدودة، وهي كما يقول "من الأرض والى الأرض تعود".

عندها نمى كمال يوسف الحاج الى مقام الفلسفة المسيحية، بعد مرحلة التفتيش بوسائل العلم المحض عن أجوبة لا يقدر العلم بمحدوديته إعطائها، رمى كل حقائقه عند أقدام المسيح، فبرزت في فكره كل قيم التلاقي البنّاء عبر لقاء الحضارات والثقافات المختلفة في أمة واحدة ومجتمع واحد.

وبالعودة ختاماً إلى بيت فكرنا لا بل بيت قلبنا الذي يسكن فيه تلامذتنا وفيما بعد طلاّبنا إليهم أتوجّه قائلاً:

صحيح أنّ مكافآت ماديّة سوف تُوزّع عليكم اليوم، لكنّ ارتقاءكم الفكري هو أبعد من كلّ ملموس.

والصحيح أيضاً أن إيماننا بالغير ملموس أي الله هو سرّ إنسانيتنا.

غوصوا في هذا السرّ الى أبعد الأعماق، إبحثوا هناك عن كنزكم، إنّه هو الساكن في قلبكم والصانع منكم مشروعاً متكاملاً لاستمرارية أرضه المشبوكة نحو سمائه.

لقد دخلتم كما ذكرت بداية وتلمّستم شعار الحقيقة، وأنتم خارجون سوف تباركم مريم شفيعة جامعتنا.

معها دوماً الى اللقاء على دروب الإيمان، الفكر والمعرفة.

وشــكراً.